على مقهى فى الشارع السياسى

إحسان عبد القدوس

قال الشاب فى سخط :

– لا أدرى لماذا نفرض على كثير من المؤسسات وعلى الصحف التى نسمى صحفا قومية أن ترسل مندوبين عنها لزيارة إسرائيل بمجرد أن إسرائيل تشكو من عدم إقبال المصريين على زيارتها . .

وقال العجوز وهو يبتسم فى هدوء :

– مادامت زيارات رسمية تتم بناء على أوامر رسمية فلا تهتم . .

وقال الشاب ساخطا :

– كيف لا أهتم وأنت تعلم أنى أرفض زيارة إسرائيل قبل أن تحل جميع مشاكلنا معها . .

وقال العجوز هادئا :

– إن الزيارات الرسمية لا تعبر عن رأيك ولكنها مجرد إجراءات تفرضها الاتفاقيات والمعاهدات التى وضعت لتحقيق السلام . . إن المسئول الرسمى لا يزور إسرائيل ، ولا يستقبل الإسرائيليين بصفته الشخصية ، بل يزورهم ويستقبلهم ويبتسم لهم ويتناول معهم العيش والملح بصفته الرسمية تحقيقا للإجراءات التى تفرضها المسئولية التنفيذية للاتفاقية والمعاهدة .

وصاح الشاب :

– ولكن إسرائيل لا تعترف بذلك . . إنها تريد أن تستقبل المصريين على أنهم رفعوا الكلفة بين البلدين والشعبين . . وأنهم يزورون تل أبيب كما تعودوا أن يزوروا بيروت . . لمجرد متعة السياحة ولقاء الأحبة . . والإسرائيليون أنفسهم يزورون مصر الآن بصفتهم الشخصية كسياح . . واليهود من أصل مصرى يزورونها لاستعادة الذكريات . .

وقال العجوز وهو يتمتص شفتيه فى حسرة :

– إن الإسرائيلى الذى يزور مصر غير المصرى الذى يزور إسرائيل . . إن الإسرائيلى يزور بلدا لم يأخذ منه شيئا ولم يفرض نفسه على أرضه . . أما المصرى إذا ذهب إلى إسرائيل فهو يذهب إلى بلد لا يزال يحتل قطعة من أرضه تمتد على طول خليج العقبة . . ولا يزال يفرض قوانه على القدس وعلى باقى الأراضى العربية التى يؤمن كل مصرى بأنها من حق أهلها العرب . . فالاسرائيلى يستطيع أن يعيش فى شوارع القاهرة وهو مرفوع الرأس والمصرى لا يستطيع أن يعيش فى شوارع اسرائيل إلا وفى قلبه مرارة الاحتلال والاعتداء الإسرائيلى . .

وقال الشاب فى حماسة :

– إذن فيجب أن يعلن كل من يزور إسرائيل أنه يزورها بصفته الرسمية . . أى أن يقف هناك بين الناس بمجرد وصوله ويقول مع احتفاظه بابتسامته الرسمية وهجته الهادئة الدبلوماسية . . يا حضرات السادة . . لقد جئت إليكم بصفتى الرسمية واستلاما للإجراءات التى تفرضها السلطات التنفيذية . . وانى أتمنى أن ازوركم يوما بصفتى الشخصية وهو مالا يمكن أن يتحقق إلا بعد أن يتم الجلاء عن كل سيناء ، وبعد أن يتم الجلاء عن الأرض العربية ، وبعد أن يسترد الكيان العربى وجوده فى القدس . . وأيضا بعد أن نستطيع تعديل المعاهدة المصرية الإسرائيلية بحيث تحقق علاقات طبيعية بين البلدين تربطها الصداقة والثقة وحسن الجوار . . وإذا كان إحساسى الشخصى يهمكم حتى أزوركم بصفتى الشخصية فإن كل ذلك يمكن أن يتحقق فى عدة شهور أو عدة أسابيع . . أما إذا لم يهمكم إحساسى الشخصى فإنى لا أستطيع أن أكذب عليكم وأتركم تتصورون أنى أزوركم بصفتى الشخصية إنما أزوركم بصفتى موظفا . . عبدا مأمورا . .

وقال العجوز ساخرا :

– ليس كل من يزورون إسرائيل من المصريين موظفين . . إن بعض التجار بدأوا يزورون إسرائيل لاستيراد الكتاكيت أو تهريب علب البيرة أو استيراد البرتقال أو إنشاء شركات سياحية أو . . أو . .

وقال الشاب مقاطعا :

– التاجر أيضا يستطيع أن يصارح الإسرائيليين بحقيقة وجوده بينهم . . ويقف فى أول مناسبة قائلا . . حضرات السادة . . إنكم تعلمون أنى تاجر وآفة التجارة تسيطر على وتحرك كل خطواتى . . وهذه الآفة هى التى دفعتنى إليكم . . ولكنى لا أستطيع أن أخفى عليكم أنى أخفى من إحساسى الشخصى . . إحساسى بأنكم مازلتم تحتلون أرضى . . وأرجو أن تعذرونى من هذا الاحساس حتى أكون بينكم بشخصى لا بمجرد آفة التجارة التى تضغطنى . . تضغطنى أمامكم وأمام شعبى الذى لا يزال يلهب شفتيه كلما سمع أنى كنت فى زيارتكم . .

وقال العجوز وهو ينظر إلى الشاب فى إشفاق :

– لا تكن خياليا . . ويجب أن تعلم أن مطالب الحياة تفرض نفسها على الأحاسيس الشخصية . . خذ مثلا الأردن . . إن الحدود مفتوحة بينها وبين إسرائيل منذ حرب ٦٧ حتى اليوم . . ومئات العمال يتنقلون كل يوم من الأردن إلى اسرائيل ليعملوا فى المزارع والمصانع الإسرائيلية ثم يعودوا فى المساء إلى الأردن عبر الحدود . . هل هؤلاء العمال يذهبون إلى اسرائيل بدافع أحاسيسهم الشخصية . . أبدا . . إن كلا منهم يتمنى لو يذهب إلى مكان آخر غير إسرائيل ولكنه مضطر أن يذهب إلى هناك بحكم مطالب الحياة . . يذهب ليعمل ويكسب ويعيش . .

وصرخ الشاب :

– هذه جريمة . . إنه استسلام للأسلوب الاستعمارى القديم . . لقد كان الاستعمار البريطانى يجلب المصريين إلى لندن . . ليدرسوا أو ليعملوا هناك . . وكان العمال المصريون يتقاضون أعلى الأجور بالعمل داخل الشركات والمؤسسات الإنجليزية . . كل ذلك حتى يستسلم الشعب للاستعمار ويرتبط به ويعيش بفضله ويأكل من خيراته . . لو كان العمال المصريون رفضوا العمل مع الاستعمار البريطانى لقصر عمره فى مصر واضطر إلى الجلاء قبل أن يتم الجلاء فعلا بعشرات السنين . . وهذا ما يجب أن نواجه به الاستعمار الإسرائيلى . .

وقال العجوز فى هدوء :

– إن الحجة التى يستند عليها قادة إسرائيل هى تأكيد تبادل الثقة . . لذلك فهم يريدون منا أن نزورهم إعلانا لثقتنا بهم . .

وقال الشاب فى قرف :

– لا أعتقد أن إسرائيل فى حاجة إلى الثقة بنا بدليل تحركاتها وتصريحاتها الرسمية التى تتجاهل بها تحرد وجودنا السياسى . . نحن الذين فى حاجة إلى الثقة بهم . . إنهم هم الذين أخذوا منا ونحن لم نأخذ شيئا . .

وقال العجوز ضاحكا :

– إن الإسرائيليين الذين يزورون مصر يأخذون كل شىء حتى الجن والسكر والأرز . . إنهم يقولون إن مصر هى أرخص أسواق العالم . . والأسعار فى إسرائيل ترتفع إلى خمسة أضعاف الأسعار فى مصر . .

وصاح الشاب فى مرح :

– هناك فكرة . . لنرسل إلى إسرائيل عشرة آلاف سائح مصرى ونشترط بحكم السلام أن يشترى السياح المصريون من أسواق إسرائيل بنفس الأسعار التى يشترون بها من أسواق مصر . . وبذلك نسترد ما يشترونه هم من أسواقنا . . ونحمى أنفسنا من السلام . .

وقال العجوز :

– هذا كلام تخريف . .

وقال الشاب مرحا :

– سأذهب إلى اسرائيل لوضعوا فى أن أدفع هناك ما يدفعه السائح الإسرائيلى هنا . .

وقال العجوز فى أسى :

– لن أذهب إلى إسرائيل إلا إذا مرت بفلسطين . .